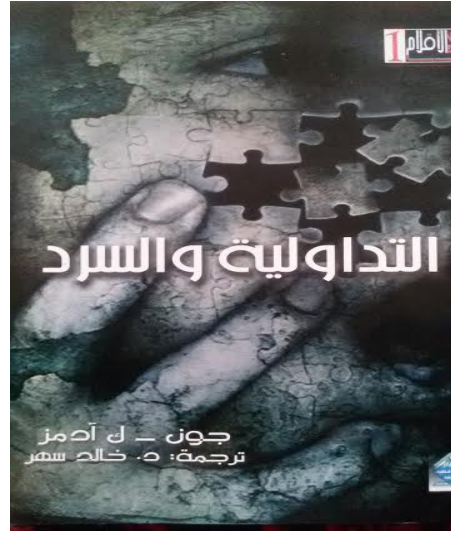


عنوان الكتاب: التداولية والسرد،

Pragmatics And Fiction



المؤلف هو الناقد البروفسور جون.ك. آدمز. أستاذ في جامعة فريبيرك الألمانية Freiburg University. وقد صدر الكتاب بطبعته الإنجليزية في عام 1985 عن شركة جون بنيامينز للطباعة والنشر الكائنة في مدينة أمستردام الهولندية، وقد ترجمه إلى العربية الدكتور خالد سهر. أستاذ الأدب الحديث في الجامعة المستنصرية. وصدرت الترجمة العربية للكتاب في طبعته الأولى عن دار الشؤون الثقافية العامة في بغداد عام 2009م، ضمن سلسلة أفلام.

وتقوم فكرة الكتاب على بيان التلازم بين التداولية والقصة؛ ذلك بأن التداولية تُعد اتجاهًا يُعنى ببيان سبل الاستعمال اللغوي من حيث

قراءة:

خالد توفيق مزعل

ثنائية القصة والمرجع في ظل الإشكالات التي تثيرها الكيانات القصصية بين الحقيقة والخيال، وختم التمهيد ببيان ماهية الخطاب القصصي في ضوء الصراع الدائر بين القصصي واللا قصصي.

وجاء المبحث الأول بعنوان: البنية التداولية للقصة. وفيه نظر الباحث إلى تلك البنية من زاوية: القصة وقضية التظاهر بإنجاز الأفعال الكلامية Speech acts في البنية القصصية التي قال بها جون سيرل Searle، وهي رؤية تقوم على أن مؤلف القصة نفسه يتظاهر بأنه يُنجز أفعالاً لا تعبيرية، لكنه في الحقيقة لا يُنجزها؛ لذا يكون من الصعوبة الظفر بتلك الأفعال إلا عن طريق التأويل التداولي لأفعال الكلام المتظاهر بها. تحول بعد ذلك إلى السياق القصصي من منظور نظرية ألعاب اللغة عند فتجنشتاين Wittgenstein الذي ذهب إلى أن القصة واحدة من ألعاب اللغة قائمة على ثنائية إنشاء قصة وقراءتها، أما البروفسور آدمز فقد وافق هذا المبدأ على أساس الأعراف التي تكوّن القصة عن طريق متكلم موجود دائماً. وقد قاده هذا إلى بيان حال المتكلم في القصة، فهو من وجهة نظر تداولية عبارة عن متكلم قصصي متخيل دائماً؛ لأنه ينسب كلماته إلى متكلم آخر، ويبنى نصّه القصصي عبر الآخرين، كما هي الحال في روايات شرلوك هولمز؛ إذ ينسب فيها كونا دويل كلماته إلى الدكتور واتسون، وهذا الأخير يغدو رايّاً لمغامرات شرلوك هولمز. وكانت محطّة الأخيرة في هذا المبحث هي الوقوف عند الوحدة التداولية للقصة، فهي وحدة عمادها حضور البنية التداولية في الأنواع

علاقة اللغة بمستعملها ومقاصدهم، أمّا القصّة فهي جنس أدبيّ يمثله النصّ اللغويّ الذي يتجلّى فيه هذا الاستعمال على أتمّ وجه؛ وقد وجد الباحث في ذلك التلازم مندوحة لنقل التداولية من سياقها اللساني التواصللي المحض إلى سياق النقد الأدبي؛ وتطويعها كي تكون سبيلاً ناجعة في تأويل البنية القصصية. وكان هدف المؤلف من وراء ذلك تسليط الضوء على فاعلية المنظور التداولي في تأويل القصة، عن طريق الاهتمام بالحالات اللسانية الخاصة بالخطاب القصصي من جهة سياقه التواصللي بين أطراف الخطاب.

وقد اعتمد المؤلف منهجاً وصفيّاً تنوّعت فيه الاصطلاحات، وغلب عليه المنحى التطبيقي بطريقة جعلت المادة المدروسة متسلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض. أما أدواته التحليلية فقد استقاها من الاتجاه التداولي ونقد القصة على حد سواء. وتقع مادة الكتاب في تمهيد وأربعة مباحث، ضمّت في طياتها موضوعات فرعية.

فقد حدد الباحث في التمهيد مسارَ دراسته في أربع وجهات هي: مفهوم التداولية وعلاقته بالقصة. وهو في هذا المنحى ينطلق من السؤال القائل: ماذا يحدث عندما تصبح أسس التداولية قصصية؟ وبعبارة أخرى، كيف تؤثر القصة في بنية اللغة وفي تأويلها؟ ويجيب عن ذلك بأن القصة تُعرف ببنيتها التداولية التي تُعد جزءاً ضرورياً في عملية تأويل القصة. عمد بعد ذلك إلى النظر في النص القصصي من منظور تداولي، ثم تناول

القصصية كافة من زاوية الاستعمال اللغوي، بوصفه معياراً مطّرداً في إنشاء النصوص القصصية كافة.

وبعد ما فرغ من توصيف البنية التداولية للقصّة، انتقل في المبحث الثاني إلى دراسة القصّة تداولياً من ناحية القارئ، فوضع لهذا المبحث عنواناً رئيساً هو: البنية التداولية والقارئ. ثمّ صنّف هذا الأخير ثلاثة أنواع تمثّلت في: القارئ الكفء، والقارئ التاريخي، والقارئ الضمني. ولا يخفى على الملم باصطلاحات النقد القصصي أنّ تلك الأصناف الثلاثة ليست بدعاً من الباحث، بل استقاها من نظرية التلقّي في النقد الأدبي؛ فقد قال بها آيزر من قبل؛ بيد أنّ الباحث وظّفها هنا انطلاقاً من تعريف التداولية الذي وضعه فلاسفة اللغة، ولا سيما موريس منهم؛ إذ عرّف التداولية بأنّها العلاقة بين العلامات والمؤولين. والقصّة هنا تمثل العلامات التي يسعى المؤول نحوها متمثلاً بأصناف القارئ التي ذكرها الباحث هنا. أمّا القارئ الكفء فهو الناقد الذي من الممكن أن يرى نفسه القارئ الأفضل للأدب، أو القارئ المثالي، أو الأنموذجي. فهي صفات تُشير إلى خواص القارئ ومؤهلاته التي تجتمع في مصطلح كفاية التلقّي الأدبي. وعلى صعيد آخر يمثل القارئ التاريخي مجموع القرّاء الذين قرأوا النص عبر تاريخه ما عدا الناقد؛ فالقارئ التاريخي هو شخص حقيقي حي أو كان حياً، قرأ النص في مرحلة زمنية معينة، ثم جاء الناقد ووقف عند قراءته تلك مناقشاً ومبدياً رأيه. وأمّا القارئ الضمني فهو طرف في عملية التواصل التداولي السردية إلى جانب المؤلف الضمني؛ فكلاهما ملازم لعملية

السرد بطريقة تجعل من القارئ الضمني أهم من القارئ الحقيقي؛ لأنّه سيكون نتاجاً لمقاصد المؤلف التي يودعها نصه، ويصوغها على وفق ما يقتضيه التواصل مع القارئ الضمني؛ لذا هو عبارة عن محرك كامن في لاوعي المؤلف، ينحوبه في اتجاهات معينة، ويوجّه مقاصده ضمناً.

ولمّا كان الباحث قد قضى وطراً في بيان وظيفة المؤلف والقارئ من جهة الكفاءة التداولية على مستوى التواصل والتأويل، قصد في المبحث الثالث إلى بيان فاعلية المنظور التداولي نفسه في تأويل القصّة، فكان عنوان المبحث: التداولية وتأويل القصّة. وقف في هذا المبحث عند الثيمات الرئيسة التي تُعنى بها التداولية متمثلةً في علاقة السياق التواصلية بالقصّة في حال وقوعها في سياق الخطاب الذي يستدعي أطراف التواصل عن طريق فعل القراءة الذي يكون من مهماته تشخيص المتكلم والمستمع. ثم أوضح الباحث بعد ذلك الطريقة التي يتم بها تأويل الأفعال الكلامية في الدرس التداولي أولاً؛ لبيان كيفية تأويل الأفعال الكلامية في القصّة تالياً. وأخيراً عمد إلى تأسيس مقاربة لفهم البنية التداولية للقصّة في ضوء الاستراتيجيات التأويلية التي يمتلكها القارئ.

وكان المنحى البلاغي هو المحطة الأخيرة للباحث؛ إذ عقد مبحثاً رابعاً لبيان المؤثرات البلاغية التي يضمنها السارد نصه، فتكون جزءاً من تداولية الفن القصصي. فجاء المبحث يحمل عنوان: التداولية

التي طرقها الباحث في كتابه، فبعضها لا يمثل مشروع بحث مستوفٍ لأطرافه كافة، على الرغم من التسلسل المنهجي الذي اتسمت به موضوعات الكتاب؛ فثمة نقاط بها حاجة إلى إشباع وسعة في التنظير والتطبيق تمنحها سمة المشروعات البحثية القائمة برأسها، ومن ذلك موضوع القيمة التداولية للمؤثرات البلاغية في النص القصصي التي طرقها الباحث في المبحث الأخير.

الدكتور: خالد توفيق مزعل.
متخصص في لسانيات النص وتحليل الخطاب
جامعة الكوفة / كلية الآداب
قسم اللغة العربية

وبلاغة القصة. وفيه سعى الباحث إلى بيان السياق التواصلية في البلاغة، ثم بيان المنحى البلاغي المتضمن في أفعال الكلام. وهو سبيل مهّد للباحث الوقوف عند بلاغة النماذج القصصية، وبيان وظيفة البنية التداولية في تفعيل المؤثرات البلاغية للقصة في ضوء علاقة القارئ بالكتاب، وما يثيره هذا الأخير عند القارئ من أفكار ورؤى.

وبعد، فلا أرى ريباً في أن هذا الكتاب يحمل في طياته أسساً نقدية تتسم بالمنهجية والوضوح، ما جعلها سبيلاً معبّدة تنحو بنا إلى الإقرار بنجاح مؤلفها في توظيف المنظور التداولي اللساني في مجال النقد الأدبي. أما الأفكار التي ضمّنها الباحث كتابه، فهي قيمة بالالتفات إليها، واستثمار نتائجها على مستوى تطبيق المنظور التداولي في نقد القصة؛ ذلك بأن مؤلفها كان موفقاً في نقل التداولية من سياقها اللساني الذي يتعاطى واللغة الاعتيادية المتداولة في الاستعمال اليومي إلى حيز البنية القصصية التي تمثل استعمالاً لغوياً مقصوداً به إلى مستوى الفن في تداول الحدث بين المتكلم والمتلقي، ولا سيما أن بنية السرد القصصي على مستوى من التعقيد الفني الذي ينأى بها عن لغة الإخبار اليومي وإن تمّ إنجاز هذا الأخير بأسلوب من أساليب الحكيم، فهي لا تُعد من القصة في شيء، وهو ملحوظ تجلّى في مفارقة أشار إليها الباحث، ونجح في التفريق بين أطرافها المتمثلة في القصصي واللاقصصي من أضرب الخطاب.

ويبقى جانب قمين بالملاحظة من بين الموضوعات